المحور الثاني:

سياسات
واسيتراتيجيات تحقيق
الأمن الغذائي

الدكتور سيف الدين ماجدي
أستاذ العقيدة ومقارنة الأديان،
جامعة الزيتونة، تونس

ملخص:

يتنزل هذا المبحث ضمن صيحات الفزع التي بلغ صداها كافة أرجاء المعمورة. وهي صيحات تأطرت بصفة رسمية منذ ستينات القرن الماضي وفق منظورة يعود بالقضية إلى نظرية "MALTUS" " مالتيس" حيث معادلة الندرة والسكان. وقد تجذرت النظرية السالفة الذكر في الأوساط الفكرية والاقتصادية حيث عبر عنها بوضوح " القنبلة السكانية" لـ " PAUL ARLECH" " بول أرلاخ" كما أن فلسفة المنظمة العالمية للأغذية والزراعة F.A.O ظلت منجذبة إلى معادلة الندرة والسكان/ ولقد انغمست الانتليجنسيا العربية في مقاربات ومناظرات لا تخرج في جملتها عن الأصل المالتيسي، فهل يمكن أن نجد في سياق حضارتنا حلولا لهذه المعضلة؟ وهل في نصوص القرآن والسنة ما يوجه الأنظار إلى سياسات واستراتيجيات رائدة للأمن الغذائي؟

وتأسيسا على ذلك فسنحاول من خلال هذه الورقة تحديد معالم مشهد الغذاء والرزق في القرآن والسنة، وإبراز منهج الإسلام في تجاوز تناقض الندرة والسكان، وفلسفة في ما يتعلق بمسألتي الإنتاج والاستهلاك على وجه الخصوص، وطبيعة علاقة ذلك بسطومة القيم الروحية في إطار المقاصد العامة للشريعة الإسلامية.

مع تأكيدنا بدءا على أن الإشكالية الراهن لهذه المعضلة وما فيه من اختلالات وخطورة ليس مرتبطا بمقدرات الأرض إنما بدوائر تكيف استعمال الأرض وتوزيع مقدراتها الغذائية، وأن لا سبيل إلى تجاوز ما تعانيه بعض دول العالم من أزمات اقتصادية خانقة إلا بتفعيل الحوار الهادف بين الأمم، ومزيد التنسيق المحكم بينها تحقيقا لما فيه سعادة الجميع.

I) مشهد الغذاء والرزق في القرآن والسنة:

نَدُر الماء عند العرب قبل الإسلام فتقلصت موارد الأرزاق وشظف عيشهم وكان تعويلهم على المطر والمرعى إذْ بهما قوام المعاش وهو ما جعلهم يتابعون قطر الغيث أنى وقع وهو ما جعلهم أيضا يتواثبون على بعضهم ويغتصب بعضهم رزق بعض بحيث يستهدف الأقوى وسائل عيش الأضعف كلما نزل الغيث1 حتى أن أعرافهم الضارية في عمق مخيالهم والتي تؤكد أن لكل قبيلة حمى ترتد حبرا على ورق وتضحى مجرد نفاق سياسي إذ بمجرد أن يعم الغيث أرضا فتخصب حتى تكون مقصدا لمن حاصره الجفاف وأعياه العطش وأجدبت أرضه فيحل بها عنوة ليأكل من ثمرها ويشرب من مائها وترعى أنعامه من كلإها.و لا يحدث هذا بين القبائل المتباعدة في النسب والجوار وإنما يحدث بين الأقارب في الدم أيضا2 وقد عبر الشاعر القطامي التغلبي عن هذا المشهد لما قال من بحر الوافر:

وكنّ إذا أغرن عن جنَابٍ *** واعوزهنّ نهب حيث كانا

أغرْن من الضباب على حلول *** وضبّة أنه من حان حانا

وأحيانا على بكر أخينا *** إذا لم نجد إلا أخانا3

---

[1] عبد الحميد سلامة, قضايا الماء عند العرب قديما من الجاهلية/القرن6م إلى القرن 11هـ/17م, ط دار الغرب الإسلامي, بيروت, 1425هـ/2000 م, ص90.

[2] م ن ,ص ن.

[3] أبو تمام, كتاب الحماسة, ط1, تحقيق, هادي حسن حمودى,عالم الكتب, بيروت, 1995, ص116.

وقد عضّد الشاعر معاوية بن مالك رأي القطامي التغلبي, يقول معاوية:

إذا نزل السحاب بأرض قوم *** رعيناه وإن كانوا غضابا4

إن هذا المشهد هو الأصل الذي قامت عليه أيام العرب وأرزاقهم قبل الإسلام إلى درجة أن «استبدت بعض القبائل العربيةِ الكبرى بمنابع المياه واعتبرتها ملكا لها وحدها لا يقاسمها فيها أحد»5 ولئن حاولت قريش عبر ظاهرة الإيلاف أن تؤسس لنظام تجاري « كانت غايته ربط مكة بمسالك التجارة العالمية وضمان مساهمة بعض قبائل الجزيرة أيضا فيصبح من المنتظر أن ينعكس ذلك في المستوى الاجتماعي»6 حيث يؤدي الإيلاف إلى تجاوز الأنظمة القبلية الخانقة ويخفف من ندرة التنوع في الرزق مع العلم أن المناطق العربية الزراعية تستطيع رفد الإيلاف بعنصر قوة وكذلك تفعل أسواق العرب إذا أحسن توظيفها.و لما جاء الإسلام راعى الوحي لحظة الوعي العربي وبدأ الدين الجديد يخرج هذا الوعي من شراك الماضي وأسر البيئة. فبدأ بتفطين العرب حيث نطق عن مشهد ينبئ أن الرزق إمكان وأن الاكتفاء وتأمين الغذاء معطى مركوزا في صلب الأرض ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيهاَ أقوَاتها في أربعة أيّام سواءً للسائلين﴾7 ولما استقرينا النصوص التأسيسية8 تبين لنا أن ذكر الرزق ومتعلقاته قد تكثّف لا سيما في القرآن حيث انزاح هذا الذكر في القرآن كله عبر سياقات مختلفة.تثبت قانونا قرآنيا يصرّح بأن المقصد الشرعي الإسلامي لا يطلب حد الكفاية في الرزق بل يطلب حد الوفرة9 التي تسمح بالادخار والتخزين والصدقة وتسمح أيضا باستئناف دورة البذر والحرث. ولتأصيل هذا القانون عمد القرآن إلى آلية توزيعية يظهر فيها حس الأولويات.إلا أن كل مراتب هذه الآلية التوزيعية تبتغي تفطين المؤمنين بهذا القانون. ففرائض الإسلام وأركان عقائده وأنواع معاملاته ونمط كفاراته وآداب سلوكه وبنية تصوراته لن تكون ذات مصداقية معنوية إلا إذا تزامنت مع قدرة على الإنفاق وبعبارة أخرى نقول إن معنوية التدين لن تتجلى إذا لم يصاحبها ناتج رزق وراهنية بذل حتى أنك لن تستطيع أن تظفر انطلاقا من القرآن

ـ الضباب: اسم قبيلة, ضبّة: اسم قبيلة,الحلول:المحاورون,من حان حانا أي من جاء أجله فهو هالك.انظر,عبد الحميد سلامه م س,ص91.

[4] الأصمعي أبو سعيد عبد الملك ابن قريب, الأصمعيات, تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارونوص4, دار المعارف بمصر 1976, ص214.

[5] عبد الحميد سلامة, م ن, ص99.

[6] محمد سعيد, النسب والقرابة في المجتمع العربي قبل الإسلام-دراسة في الجذور التاريخية للإيلاف- دار الساقي ط1 بيروت لبنان 2006ص76.

[7] 10 وفصلت, 41.

[8] نقصد بذلك القرآن والسنة.

[9] جاءت آيات صريحة للدلالة على هذا المقصد, انظر على سبيل المثال الآية 6 العنكبوت, 29, والآية

والسنة بنصوص تخلوا من هذه المزواجة إلا قليلا .حيث بين لنا الاستقراء أن الارتباط مكين ومتواصل فالديني المحض يفضي إلى الفعل الاجتماعي/الحدث الرزقي والفعل الاجتماعي يفضي إلى الدينـــي الروحي.

وتتعلق هذه السنة بالعقائد10 وبالأركان الخمسة11 وبالأخلاق12 والسلوك13 وبنوافل الأعمال من الصدقات وبالكفارات ولسائل أن يسأل عن الحكمة من هذه المزاوجة؟

إن الحكمة من هذه المزاوجة تقوم على ملحظ أن يفقه المسلم وهو يسعى إلى تطبيق دينه أنه بالأرزاق يكون قوام الأعمال الدينية والدنيوية وأن الإنفاق في سبيل الله مطلوب وهو متعلق بالعبادات وغيرها ويبدأ من الأرض ويكون في الأرض. فلا سبيل إذن أن يقوم فعل الروح إذا أهملنا مسائل المعاش. فإذا فقه المسلم ذلك سعى بجد وهمة إلى توفير الرزق المريح الذي به تدفع الخصاصة ويفعّل التدين باعتبار أن «من لا معاش له لا معاد له»14.

---

[10] جاء في سورة النساء ما يؤكد هذا:قال تعالى ﴿ وماذا عليهم لو ءامنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾, 39, النساء, 4 وكثيرة هي الآيات التي تربط بين العقائد والإنفاق.

[11] * الصلاة: قال تعالى: ﴿ قل لعبادي الذين ءامنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية﴾31, إبراهيم, 14.

* الحج: قال تعالى: ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا اليائس الفقير﴾ 28, الحج, 22.

* الصوم: قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾187, البقرة, 2, وقد ربط الإسلام بين الصوم وزكاة الفطر وهي إنفاق قدر من طعام أو مال.

* الزكاة: من المعلوم أن الزكاة إنفاق مال أو إخراج جزء من محصول الأرض أو رأس فأكثر من الأنعام, قال تعالى في الزكاة: ﴿و مما رزقناهم ينفقون﴾ البقرة, 2, وقال أيضا ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده﴾141, الأنعام, 6.

[12] تتوزع المعاملات فمنها ما يعود إلى الأحكام الشخصية من زواج وطلاق وخلع ونفقة ورضاعة...ومنها ما يتعلق بالعقود كأنواع البيوع, والكراء والإجارة ومنها ما يتعلق بقسمة المواريث, ومنها ما يتعلق بالديات والصلح, ومنها ما يتعلق بمصالح عامة أخرى وقد دلت آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم المتعلقة بفقه المعاملات على ذلك أي على ارتباط وثيق بين المعاملات والقدرة على الإنفاق وليس هذا مقام سردها.

[13] قال تعالى:﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ 67والفرقان, 25 وقال ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ﴾134, آل عمران, 3.

[14] تنسب هذه القولة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولا يكتفي المشهد القرآني بهذه المزاوجة التأصيلية التي وظفت للرزق تعبئة روحية.بل يعمد إلى إثارة المسالة عبر سياقات متكاملة تصرح كلها بأن عناصر الغذاء موفورة في الأرض حيث ذكر القرآن الماء15.

والنبات16 والحيوان17 في سياقات مفعمة بالإيجابية وتنبئ أن هذه العناصر الثلاثة مسخرة وفق تواصل يسمح بتحقيق الغذاء الوفير إذ يمكن لهذه العناصر أن تفي بحاجات الإنسان الغذائية. وقد أشار القرآن إلى هذه الثلاثية في تواصلها المعطاء فقال﴿خلق السموات بغير عَمَدٍ تَرَوْنهاَ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾18 ووصف الأزواج النباتية بالكرم فيه إيحاء بضمان تواصل العطاء. ذلك أن حاجة الإنسان والحيوان لنبات الأرض أكيدة.

ثم يقتحم بنا القرآن والسنة عبر سياق أخصّ صميم موضوع الأمن الغذائي حيث تحضر كلمات مثل الأكل19 والطعام20 والشراب21 والرزق22 ثم يصل بنا المشهد القرآني إلى عمق المسألة حيث نشهد وعبر سياقا ثالثا تفصيلا لما كان يذكر مجملا فإذا بنا مع مفردات سَلّة الغذاء من مثل اللبن23 والعسل24 والزيت25 والحب والعنب والنخيل والزيتون26 والرمان27 والتين28 والطلح29 والفاكهة30 والقثاء, والفوم, والعدس والبصل31.

---

[15] الماء: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ 30 الأنبياء 21. ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فاسكناه في الأرض﴾18 المؤمنون 23, ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرج به نبات كل شيء﴾.

[16] النبات :يتكثر ذكر عالم النبات في القرآن ويرتبط هذا الذكر بمعاني متعددة تتعلق بالموت والحياة رغدا وشظفا وبالقدرة على الإحياء والإفناء وبضرب المثال وبمتعة النظر وتذوق الجمال ومن هذه الآيات نذكر قوله تعالى« أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم» 7, الشعراء, 26. انظر, محمد فؤاد عبد الباقي, المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, دار الفكر, بيروت لبنان, 1407 هـ/1987م, (ن.ب.ت)، ص687-688.

[17] الحيوان: ذكر القرآن الحيوان تحت مسمى الأنعام كما ذكر بعض صنوف الحيوانات بأسمائها بل وتسمت أسماء سور منه بأسماء الحيوان:البقرة, الأنعام, النمل, الفيل. ويمكن أن نجمل مقصد ذكر الحيوان في هذه الآية, قال تعالى«و الأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون» 5 النحل/16.

[18] 10, لقمان, 31.

[19] وردت كلمة الأكل في القرآن بتصريفاتها المختلفة[109] تسع ومائة مرة, انظر محمد فؤاد عبد الباقي, المعجم المفهرس, ص35-36.

[20] وردت كلمة طعام بتصريفاتها المختلفة [48] ثمان وأربعون مرة, م ن, ص425-426.

[21] وردت كلمة شراب بتصريفاتها المختلفة[40] أربعين مرة, من, ص377-387.

[22] وردت كلمة الرّزق بتصريفاتها المختلفة [126] ست وعشرون ومائة مرة, م ن, ص311-312.

[23] انظر الآية 15, محمد, 47, والآية 66 النحل16.

[24] انظر الآية 15, محمد, 47.

أما السنة النبوية فقد استفاض ذكر الغذاء فيها وفق مشهد فصّل ما ذكره القرآن مُجْملا فإذا بنا أمام أسماء مخصوصة لأطعمة حيوية وكمالية من مثل الحلواء نقيع التمر, التمر, الرطب, البسر, الجُمّار, الخبز, الثريد, الدّباء – المرق, القديد, السلق, الشعير32.

إن المتأمل في مسألة الغذاء.من خلال سياقات النصوص التأسيسية يستنتج أن هذه النصوص قد أطّرت المسألة بصفة تبرز كونها مسألة حيوية متعلقة بكرامة الإنسان.بحيث لا تجد في هذه النصوص تهجينا أو نكيرا لحق الإنسان في الغذاء وليس كل غذاء.بل الغذاء الطيب ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾33 فلا غمط لهذا الحق بل إن النصوص تستنكر فعل من يحرم الطيبات من المطاعم والأشربة مهما كانت دعواه ومنطلقاته وأغراضه34 ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الموقف يعود إلى أصل قرآني يقول ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين ءامنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾35 ويطّرد هذا الأصل القرآني في الزمان والمكان,بحيث يبقى الطعام دائرا على مقتضى الإباحة, إلا إذا خبث وتعفن أو انحرف به الإنسان عن مقتضى طبيعته الطيبة بأن صيّره خبيثا لغرض ما,فحينها ينحرف الإنسان عن محمود التصرف يزجره الوحي ليبصّره بعبث ما يفعل ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾36.

II) كيف تجاوز القرآن والسنة تناقض الندرة والسكان:

---

[25] انظر الآية 35 النور 24.

[26] انظر هذه الألفاظ الأربع في الآية 29, عبس 80.

[27] انظر الآية 99 ألأنعام 6.

[28] انظر الآية 1 التين 95.

[29] انظر الآية 29 الواقعة, 56.

[30] انظر الآية 61 البقرة2.

[31] انظر الآية 61 البقرة, 2.

[32] أبو عبد الله بن إسماعيل البخاري, صحيح البخاري, ط4, دار الكتب العلمية بيروت لبنان, 2004م/1425هـ. كتاب الأطعمة بأبوابه كلها من ص 1010 إلى ص 1023, وكتاب الأشربة بأبوابه كلها من ص 1043 إلى 1051.

[33] 168, البقرة, 2.

[34] النباتيون يحرمون أكل اللحم.

[35] 31 – 32, الأعراف7.

[36] 60, البقرة, 2.

برغم ما فعلته البحوث العلمية الفلاحية وبرغم ما بشرت به من كون العالم لن يجوع37 وبرغم جودة التكوين في الميدان الفلاحي وبرغم نجاعة القدرات الآلية machinisme الهائلة وبرغم سياسة تنظيم النسل التي اجتاحت العالم.ظلت المقاربات التي شهدها القرن العشرين منجذبة إلى نظرية "الكاهن الطيب" مالتيس Maltus وبقيت قضية الندرة والسكان تؤرق الأوساط الاقتصادية والسياسية بل وأصبحت نظرية مالتيس Maltus «بمثابة عقيدة يعتنقها المتشائمون حتى يومنا هذا»38 فكيف عالج القرآن هذه المعضلة؟

العمل أصل الأمن الغذائي: العمل قدر استطاعة وواجب جماعة.

أ -العمل قدر استطاعة:مسؤولية الفرد.

دفع الإسلام الفقر بالعمل واعتبرت النصوص التأسيسية أن العمل هو كينونة الذات ﴿و أن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾39 ذلك أن العمل بحسب نصوص القرآن والسنة إمكان منغرز في صميم الشرط البشري وإن تفعيل هذا الإمكان أو إهماله أو التفريط فيه هو من صميم مسؤولية الإنسان ونقصد بذلك أن العمل بحسب المنظور القرآني من صفات الإنسان التكوينية فالإنسان بصفته التكوينية قادر على العمل.بحيث إذا تُرك العمَل وبطل الفعل دل ذلك على تعطيل للصفة التكوينية للإنسان ومن الناس من لا يتنبه إلى هذه الحقيقة إلا بعد تعطّل الأسباب فيقول وقتها ﴿أرجعوني أعمل صالحا فيما تركت﴾40 أو تقول نفس بعد فوات الأوان يا حسرة على ما فرطت. ترى النصوص التأسيسية أن تعطيل الصفة التكوينية يدل على وجود الخلل والعطب وهذا هو الملحظ الذي تفطن له الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال «اللهم إني أعوذ بك من الكسل»41 فقد دعا الله تعالى أن يعصمه من هذا العطب رغبة منه في أن تبقى الصفة التكوينية للإنسان حية فاعلة.ولقد راعت فلسفة التكليف الإسلامية هذا البعد الأصيل في الإنسان فقام مشروع الوحي على الاعتقاد والعمل بحيث أوجب الله العمل وجوبا عاما في الأشخاص فلا يسقط عن الإنسان الصحيح مهما كان المقام أو الشأن ذلك أن مباشرة الأسباب لتحصيل الرزق سنة كونية كامنة في نظام العالم وأقصد بالمقام أن هذه السنة لم ترفع عن الرسل عليهم السلام رغم علو مقامهم عند الله.فلم يفجّر الله لموسى الماء لما طلب الأسباط ذلك بل أمره بمباشرة الأسباب فقال له﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ 42.

---

[37] انظر في هذا كتاب, لن يجوع العالم, هـ. كلفر, ترجمة مصطفى عبد العزيز, دار المعارف, مصر, 1963.

[38] م ن, ص9.

[39] الآية 39 النجم 53.

[40] 99-100 المؤمنون 23.

[41] صحيح البخاري, كتاب الدعوات, باب التعوذ من أرذل العمر, حديث رقم 6371, ص1163.

[42] 60 البقرة, 2.

ولم ييسر الله لموسى الزواج بمعجزة تخرق قوانين الاجتماع أو تعطل قانون السّعي بل قدمه لنا بشرا يعمل وفق السنة الكونية ليحصّل منفعة له.فإذا بموسى يرعى أغنام شعيب في إطار عقد إجارة يتم بموجبه شرط الزواج, كما أن الله لم يصنع لنوح السفينة بل أمره بمباشرة العمل قائلا﴿واصنع الفلك﴾43 ولم يبن سبحانه لإبراهيم عليه السلام البيت الحرام بل أرانا إياه وهو يرفع القواعد من البيت صحبة شريك له في العمل هو ابنه إسماعيل عليه السلام44 وأقصد بالشأن أن العمل لا يرفع عن القادرين عليه مهما كانت أحوال الإنسان النفسية -إذا لم يعدم العقل- ألم يقل القرآن للسيدة مريم عليها السلام وهي في شأن فيه كرب﴿وهزي إليك بجذع النخلة تسّاقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقرّي عينا﴾45.

وفي هذا الخطاب دلالة على وجوب مباشرة السباب لتحصيل الغذاء ولقد بلغ شأوُ القرآن في هذه الحيثية مبلغا مهما حيث رفع عن المسافر صاحب الشأن الخاص نصف الصلاة ولم يرفع عنه وجوب العمل,مراعاة لقيمة الشغل وحرصا على حماية ديمومة سنة السّعي.

قال تعالى في سورة النساء﴿و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة...﴾46 وهو ما يؤكد ما ذكرناه من وجوب العمل رغم أحوال الشأن.

وبناء على ما تقدم يكون العمل من صميم قدر الاستطاعة فلا حجة للإنسان في تركه ولا مناص للفرد منه ورغم تهيئ الفرد بهذا الاقتدار ورغم وجود طبيعة مسخرة وغنية فإن استعداد الفرد لن يتحول من القوة إلى الفعل إلا إذا تواصل مع استعداد الآخرين ﴿وقل اعملوا﴾ ومن هنا يتحول العمل من مسؤولية فردية إلى واجب جماعة.

ب- العمل واجب جماعة:عزم الجماعة يضمن الاكتفاء:

تهيأ الإنسان /الفرد,بصفته التكوينية للعمل والاكتمال الذاتي مطلوب وقد تحقق في الإنسان الفرد ولكن العمل بحسب نصوص القرآن مهمة جماعية أو قل مشروعا مجتمعيا,وليس نشاطا فرديا مهما كانت قيمة وفاعلية هذا النشاط الفردي47 فنبوغ الأفراد في العمل قد يحبط إذا لم يجد سندا جماعيا يثمّن ويستثمر ويدفع إلى التألق والابتكار ومن خلال هذه الحقيقة تفهم ظاهرة هجرة الأدمغة إذ ينصرف الفاعلون إلى حيث الجماعات التي يبلغ فيها احترام العمل حد الفضيلة ولتأكيد ما ذكرناه نقول إن كلمة العمل وردت مرة واحدة في القرآن متعلقة بضمير المفرد المتكلم أنا ﴿عملي﴾48 وكذلك وردت مرة واحدة متعلقة بضمير المفرد المخاطب

---

[43] 37, هود11.

[44] انظر الآية 127 من سورة البقرة, 2.

[45] 25-26, مريم 19.

[46] 101 النساء, 4.

[47] عيسى عبدة, أحمد إسماعيل يحى, العمل في الإسلام, دار المعارف, مصر 1983, ص120-121.

[48] وردت عملي في الآية 41 يونس10.

أنت﴿عملك﴾49 في حين تكثفت صيغ الجمع من مثل عملكم, أعمالكم, أعمالنا, أعمالهم, عاملون, العاملين, كما تكثفت الأفعال المنصرفة إلى الجمع50 وهو ما يؤكد أن روح نصوص القرآن تؤصل كون العمل واجب جماعة من دون أن تنفي أنه متعلق بقدر الاستطاعة, لأن المطلوب في تحقيق فاعلية العمل أن ينزاح الحس الجماعي -نحن- لا الحس الفردي -أنا- وقد بينت آية التوبة هذا الملحظ فذكرت أن العمل لن يكون حدثا منشودا إلا بالجماعة فقالت:﴿ وقُل اعْمَلوا﴾ وبينت أيضا أن العمل لن يكون حدثا مشهودا مباركا وفيه خيرية إلا بالجماعة فقالت ﴿فسيَرى الله عَملكم ورسُوله والمُؤمِنون﴾ ولم تقل فسيرى الله عمل كل واحد منكم.وفي هذا تأكيد على أن العمل جماعي أو لا يكون ولم تترك النصوص التأسيسية هذا المقصد عامّا بل خصّصته ليتعلق بتحصيل الرزق مع التأكيد دائما على قانون الحركة الجماعية ﴿فامْشُوا في مَناكبها وكلوا منْ رزقه﴾51 فالملاحظ هنا صرف فعلي امشوا وكلوا إلى الجماعة, وقد تأكد هذا الملحظ في سورة الجمعة ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾52 حيث تبيّن أن الجماعة العاملة الفاعلة ليس لها في يوم الجمعة ركون إلى الدّغة والارتخاء. ويبقى العمل واجب جماعة مهما كان موقع نشاط الرزق, ولذلك لم يهمل القرآن قانون الحركة الجماعية ولو كان الرزق في البحار أو الأنهار ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغٌ شرابهُ وهذا ملح أجّاجٌ ومن كلّ تأكلون لحْماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾53 فالمطلوب إذن أن يتأصل العمل من خلال جدل الأنا والجماعة.

وعلى الجماعة أن تضع نظم «تشريع العقود»54 والذي تُضْبَطُ فيه الحقوق والواجبات وضروب التصرف حين العمل في الملك الخاص والعام ويتولى القضاء التدبير لهذه المسائل إنتاجا واستهلاكا وتوزيعا وفق ما يقتضيه صلاح أحوال العمران ولمزيد توسيع دائرة الصلاح تضطلع الجماعة بدورها في تسهيل سبل العمل والتعامل حتى لا تعطل القدرات البشرية والمّادية ومن هنا « شرعت المعاملات على العمل مثل المغارسة والمساقاة»55 وغير ذلك كالمزارعة والقراض والرّعي والمهم أن تبقى الجماعة وفيّة لمقصد الملازمة بين العمل والصّلاح وهو مقصد تواتر التنبيه إليه في القرآن الكريم56.

---

[49] وردت عملك في الآية 65, الزمر 39.

[50] انظر في ذلك محمد فؤاد عبد الباقي, المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, ص483-488.

[51] 15, الملك 68.

[52] 10, الجمعة, 62.

[53] 12, فاطر, 35.

[54] محمد الطاهر ابن عاشور, مقاصد الشريعة, دار سحنون, تونس, دار السلام مصر 2006م – ص174.

[55] م ن, ص176.

[56] «وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» 61 يونس.

.) جدل العمل والطبيعة:

ذكرنا فيما تقدم أن العمل يعود إلى الصفة التكوينية في الإنسانية أي أن الإنسان بصفته التكوينية يستطيع أن يعمل, وها هو ذا القرآن يقدّم لنا الطبيعة على أنها كائن له خاصيته التكوينية. فهي عالم فعلي منظم إلى حد بعيد,عالم له قوانينه الفيزيائية المقدّرة المحفوظة والموزعة57 والقابلة للملاحظة والقياس58 والخاضعة لعلاقات ثابتة بين السبب والنتيجة والحقيقة أن الوحي لا يقدم هذه الصورة انطلاقا من تعقل مفارق يقول بالضرورة المنطقية بل يتحدث عن هذه المعطيات بصفتها خاصية تركيبية للعالم59 وبناء عليه فالجدل سيقوم بين جهد الإنسان العاقل وبين طبيعة ذات بنية معقولة خيّرة قابلة للعطاء وقابلة للاستثمار وقابليتها للعطاء قابلية مفتوحة أي أنها تعطي بشكل هائل وديناميي ومتواصل بحيث لا ينفد عطاءها مدَدا ولا يحصر عددا ﴿و إن تعدوا نعمة الله لا تحصونها إنّ الإنسان لظلوم كفّار﴾60 أي أنه لا مجال للحديث عن الندرة وتبقى فقط مسألة كثرة البشر حيث يقابلها القرآن بنجاعة العمل.فالعمل المنظم والمخطط له والذي يصل فيه الإتقان حدّ الابتكار هو وحده الكفيل بسد حاجة الكثرة.ولن تكفي رؤوس الأموال ولن تكفي كثرة المياه إذا كان قوام الاستثمار غائبا.وقوام الاستثمار هو العمل ولعل مثل اليابان من أجدى ما يُذكر في هذا المقام.حيث كان لحب العمل وإتقانه وشدّة التنافس فيه ما هيّأ لليابان أن تلج مجد الصناعة والمال.

) تحقيق المناط:تجليات جدل الإنسان والأرض:

يتحقق جدل الإنسان والأرض ويثمر أمنا غذائيا بأمرين: أولهما يتعلق بخصوصية فعل الإنسان وثانيهما يتصل بفضل الزراعة وواجب الحث عليها.

خصوصية فعل الإنسان:

وجه القرآن والسنة الإنسان إلى أن ينظر نظر اعتبار إلى هذا الجدل الخلاّق الذي يقوم في كل حين بينه وبين الأرض ودعت النصوص التأسيسية الإنسان إلى أن يبادر فينخرط في هذا الجدل كمركز مفعّل لا كهامش ثانوي ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي أنه إذا فعّل الإنسان حضوره فجانب الكسل وانتبه بعزم فعمل وفق سنة هذا الجدل يوشك أن تأتيه الأرض طوْعا فتصبح خيراتها متاعا له وقد أكدت بعض الآيات من سورة النازعات لما قالت ﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها متاعا لكم ولأنعامكم﴾61 ولقد تأكد لي من خلال استقراء النصوص القرآنية أن المطلوب في استثمار الأرض أن تجتمع ثلاث قوى دفع:

---

[57] « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون» 19 الحجر 10.

[58] « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» 17 الغاشية 88.

[59] قارن ما قلناه بما ذكره بول ديفز في الله والعقل والكون, ترجمة سعد الدين خرفان, وائل بشير الأتاسي منشورات دار علاء الدين سورية دمشق, ط4, 2005، ص208-209.

[60] 34، إبراهيم, 14.

[61] 30, 31, 32, 33, النازعات 79.

أولهما العزم البدني أو القوة البدنية[62] إلا أن العزم البدني وحده لا يكفي أي أن تفعيل الجدل يبقى ناقصا إذا لم يحضر العنصر الثاني ألا وهو الاقتدار العقلي أو قل استثمار الذكاء البشري عند مزاولة العمل الزراعي لتملّك ما تدره دورة الغذاء وقد عبّرت الآية الواحدة والعشرون من سورة الزّمر عن هذه الحقيقة لمّا قالت﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾[63] والملاحظ أن الآية[64] تطمح إلى يكون الذكاء صفة كل مستثمر للأرض والدليل على ذلك أنها خاطبت الأفراد بأشخاصهم فقالت﴿ألم تر﴾ بصيغة المفرد ثم قررت في النهاية ولمزيد التأكيد على أهمية الذكاء أن أولي الألباب أي أصحاب العقول النيّرة الراجحة هم وحدهم الذين سيستفيدون من ملاحظة دورة الغذاء بحيث أنهم سيطوّعون قانونها لينتفعوا أكثر ما يمكن ولن يبلغ الاستثمار مبلغ الكمال الرشيد إلا إذا روعيت فيه مقدرات الأرض ونقصد بمراعاة مقدّرات الأرض أن تبنى عملية الإنتاج وعملية الاستهلاك وعملية التوزيع على أساس خطة تراعي ما يلي:

* الترتيب العقلاني في العمل الزراعي:

يرى القرآن أن الأرض هي مصدر الغذاء وهي محضنه المكين الأمين وأن مقدراتها الغذائية تستطيع الوفاء بالحاجة وتحقيق الكفاية حقيقة لا وهما.قال تعالى ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا﴾[65] أي أنها تحمل المقدّر للكفاية ذلك أن مصادرها الغذائية قابلة للتجدد حيث أن النباتات والمغروسات -الأشجار- تعطي عبر التوالد من البذور والفسائل ما يسمح بسد فجوات الهرم والانقطاع ويصل هذا العطاء حد الفائض. وما على الإنسان إلا أن يحسن الترتيب العقلاني. عندما يتعامل مع الأرض تربة وماءً ونباتا وشجرا وظروف بيئة.ويعود الترتيب العقلاني إلى معنى الاستغلال الذكي لما تحت يد الإنسان من مقدرات وهناك آيات قرآنية قدمت لنا نموذجا مشهودا لما يجب أن يحدث وفق الترتيب العقلاني لكي تظفر بالغذاء قال تعالى في سورة عبس﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبًّا ثم شققنا الأرض شقًّا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غُلْبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم﴾[66] نستطيع أن نسمي هذه الآيات بآيات الترتيب العقلاني لإنتاج الغذاء وقد جاءت الآيات في سياق الدلالة على قدرة الله

---

[62] نوه الإسلام بصفة القوة وذكرها متعلقة بحيثية العمل انظر قوله تعالى« فأعينوني بقوة» 95 الكهف, وانظر: قوله تعالى في سورة القصص«يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين» 26/القصص28.

[63] 24, الزمر, 39.

[64] هناك آيات أخرى صرحت بأهمية فعل التعقل عند مزاولة العمل الفلاحي.انظر, البقرة 164, والروم 50 المرسلات 25-26-27, وانظر أيضا سورة عبس 80.

[65] 25, المرسلات 77.

[66] 24-32, عبس 80.

في الإحياء وعلى تجلي تفضله بنعم شديدة الملازمة لحياة الإنسان وبيت القصيد في هذه الآيات ومقصد الدلالة أن يلهم الإنسان فقه مراحل أطوار «تكوّن الحبوب والثمار والتي بها طعامه»[67] فيعلمها علما تفصيليا يسمح له باكتساب الخبرة ليوظف هذه الخبرة كلما أراد أن يزرع ليقتات ويشبع وما على الإنسان إلا أن ينظر بعين بصيرة ويحاكي بدقة ما ذكرته الآيات وسيقوم نسق الملاحظة على مراعاة المتعلقات الآتية:

1) أول متعلقات العملية: ﴿ أنّا صببنا الماء صبا﴾ أي أن يجمّع الماء ذلك أن الصّبَ في عرف اللغة العربية يقتضي الجمع , يقول العرب «صب الماء في الجرّة وصبّ الدّراهم في الكيس وصب القمح في الهَرِي»[68] ولذلك فلا بد لعملية الإنتاج من رافد مائي معلوم. بحيث يكون قابلا للتجميع والصرف.

2) ثاني متعلقات العملية: ﴿ ثم شققنا الأرض شقا﴾: إن شق سطح الأرض بخرق الماء يمكن أن يكون بآلة من محراث أو مسحاة أو غير ذلك.والذي يبدو لي من لغة الآية وبحسب حرف العطف "ثمّ" إن حرث الأرض يأتي بعد التأكد من كفاية الماء.بحيث لا نجازفُ بالبذر حتى تكتمل حصة الماء. ولهذا الملحظ كان استعمال "ثمّ" الذي يفيد التراخي في الزمن ومما يؤكد ذلك أن عملية الشق تحتاج إلى جهد ووقت ودقة في الحرث تجعل التراب ممهدا تمهيدا إذ من دلالات الشق في اللغة الإبعاد بين ما كان متصلا[69].

3) ثالث متعلقات العملية: الإنبات زرعا وغرسا ﴿فأنبتنا فيها﴾ بعد أن تهيأت أسباب الري والسقي وتم "تحضير" التربة فلنبادر بالزرع أو الغرس.حتى لا يخرج وقت البذر إذ لكل بذر زمانه وظروف إنباته والظاهر أن حرف - الفاء- في قوله تعالى ﴿فأنبتنا﴾ يوحي بعدم الارتخاء ويؤكد الترابط السريع الذي يكون بين التهيئة والبذر.فمن معاني حرف- الفاء - إذا استعمل في العطف التعقيب السريع والملحظ في ذلك بالنسبة للفلاح,خوف أن تعود الأرض إلى صلابتها الأولى ويهدر جهد الإعداد. ونكون ﴿كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾[70] والظاهر من خلال الآيات أن عملية الإنبات تخضع لقانون السببية حتى أن الله جل شأنه أظهر أن فعله في الإنبات يسير وفق قانون الأسباب رغم قدرته على خرقها وهو ما يؤكد أن خطاب الوحي يريد أن يتمثل الإنسان هذه الحقيقة التي تصرح أن الإنتاج يخضع لسلسة من الأسباب مترابطة الحلقات,وتلخيصا لما قلناه نذكر بأن الإنسان إذا أحسن الترتيب العقلاني وهو يتفاعل مع ظاهرة الزراعة نال مبتغاه وقد عقبت الآيات بذكر هذا المبتغى لما قالت ﴿فأنبتنا فيها حبا

---

[67] محمد الطاهر ابن عاشور, التحرير والتنوير, ج 30, الدار التونسية للنشر, تونس, 1984وص129.

[68] م ن, ص131.

[69] قارن, م ن, م ص.

[70] 93 النحل 16.

وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعا لكم ولأنعامكم﴾71 إن هذا التنوع يخضع كله إلى المتعلقات التي ذكرناها وتبقى المسؤولية ملقاة على عاتق الإنسان.

* تجنب الاستنزاف العشوائي أو الترفي:

أ). تجنب الاستنزاف العشوائي:

نقصد بالاستنزاف العشوائي جملة من المعوقات التي تعطل عطاء الأرض أو تهلكه وتتعلق بالإفساد أو التعطيل.

1. تجنب الإفساد:

جاءت النصوص التأسيسية تنادي بالتعمير واستثمار الأرض ولقد سمى القرآن الغرس والزرع تعميرا72 إذ بهما يتحقق الأمن الغذائي الذي هو العمدة في قيام النمط الحضري وتحقق الاستقرار في المكان فالتجمعات الكبرى لا تستطيع الاستيطان إذا لم يرفدها الحرث بالحاجيات وبناء على هذا الملحظ توّعد القرآن من يعتدي على الحرث واعتبر ذلك جريمة تضاهي القتل.إذ لما تحدث عن هذه الحيثية لم يقل أن المعتدي على الزرع يفسد بل قال يهلك, والإهلاك في اللغة هو القتل قال تعالى عن نموذج هذا المفسد ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾73 وبناء على هذا الوعيد القرآني نهت السنة النبوية عن الاعتداء على النبات والأشجار بالقلع أو الحرق لغير ضرورة ملحة كما نهى الخلفاء عن ذلك زمن الفتوح74 وقد يكون الإفساد بجملة من المعوّقات الأخرى كإجهاد الأرض بإرهاق خصوبتها75 أو بتهميش دور الزراعة أو بالتشجيع على ما يؤدي إلى التصحر .

2. مجانبة التوجه الترفي:

لا يثق القرآن في المترفين ولا ينيط بهم عملا مهما ولا يسند لهم أي درجة من درجات الشرف وقد لاحظت آيات القرآن أن هذا التوجه يؤدي إلى استنزاف اقتصادي76 فهو إما مسرف أو متلف .

فهو مسرف إذا التفت إلى كسب الرزق واستغلاله حيث يحتكر في ملكية الأرض ويقتر في إعطاء حقوق الناس ويسرف في الأكل والشرب إلى حد التبذير والتبذير استنزاف يفوق

---

[71] 25-32, عبس 80.

[72] خاطب الله قوم هود قائلا« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»61, هود.ومن المعلوم أن قوم هود كانوا قوم غراسة وزراعة وكانت الفلاحة من أسباب استيطانهم وتجلي عمرانهم.وقد دأب العرب على تسمية الحرث عمارة.انظر في هذا, الطاهر ابن عاشور, م ن, ج12/ص108.

[73] 205, البقرة, 2.

[74] محمد حميد الله, مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة, ط4, بيروت, 1403هـ/1983م ص410.

[75] عبد الحميد سلامة, م ن, ص327.

[76] سمّاه القرآن:التبذير.

الشراهة وهو يؤدي إلى ضياع مقدرات معاشية حيث تنصرف إلى غير أبوابها ولقد نبه القرآن إلى هذا الخطر فقال ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين﴾77.

وهو التوجه الترفي – متلف إلى حد الكفر بالنعمة حيث تدفعه طبيعة الاستغلال وجشع السوق إلى حد إتلاف زوائد الغذاء وفوائض المحصول بالحرق أو الرمي في البحر أو بتقديمها علفا للدواب أو بأي صورة من صور الإتلاف كل ذلك ليبقى مسيطرا على مقدرات الإنتاج والتوزيع ومحتكرا لسوق الصرف ضاربا عرض الحائط بكل القيم الإنسانية الداعية إلى تكافل وتضامن وتعاون بني البشر﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾78 ولقد نبه القرآن إلى أن هذا التوجه يتكثر كلما وجد فرصة فقال ﴿ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾79 ولا دفع لهذا التوجه إلا إذا قامت موازين التعامل بين الأمم على أساس رفض شراسة الدوائر التي تكرس الأمر الترفي ولتحقيق هذا المقصد جاء النهي القرآني يقول﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾80.

3.مجانبة التعطيل:

تتعطل الأراضي الزراعية الخصبة والمتوسطة الخصوبة بسببين أولهما احتكار الماء وثانيهما ترك الأرض بورا همَلا رغم ما فيها من مقدرات إنتاجية.

احتكار الماء:

نص القرآن الكريم على أن الماء لله فقال ﴿له ما في السّماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾81 وصرحت السنة بمنع احتكار الماء82 ونشأت انطلاقا من توجيهات القرآن والسنة مباحث فقهية جليلة تمحورت حول ما يعرف في كتب الفقه بحريم الآبار وأحكام التصرف في المياه كالعناية بموارد المياه واقتسام منابات السقي وتقدير الأولويات فيه والظاهر من خلال استقراء نصوص هذه الكتب83 أن مسائل الماء أخذت توجها جديدا يمكن أن أسميه

---

[77] 31 الأعراف, 7.

[78] 12, يونس, 10.

[79] 32، المائدة، 5.

[80] 6, الشعراء, 26.

[81] 6, طه, 20.

[82] أبو يوسف, كتاب الخراج, دار المعرفة, بيروت, 1979، ص96-97 وانظر عابد بن محمد علي صالح وطه عثمان الفراء, نظم الري القديمة في المملكة العربية السعودية, بحث ضمن الندوة العالمية الثالثة, لتاريخ العلوم عند العرب الكويت, 1983, إسهامات العرب في علم الماء والري ص536-537.

[83] ابن الرامي أبو عبد الله اللخمي, الإعلان بأحكام البنيان, تحقيق فريد بن سليمان مركز النشر الجامعي تونس, 1999, ص160 وما بعدها وانظر ما يتعلق بهذا الموضوع في الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم , ص99-100-101-102, وانظر الجزء الخامس من كتاب القسمة وأصول الأرض لأبي العباس أحمد بن الفرسطائي.

بفقه استثمار الماء.حيث تعلق النظر فيه بملحظ النجاعة في استثمار الماء ليكون قوة دفع للزراعة ولا يفوتنا أن نشير إلى أن العالم الإسلامي قد عرف علماءً تخصصوا في هذا العلم ورفعوا تحديا كثيرا ما أرهق الناس.

* إحياء الأرض الموات:

حتى لا تعطل الأرض شرع الرسول صلى الله عليه وسلم إحياء الأرض فقد جاء في صحيح البخاري من كتاب الحرث والزارعة باب من أحيا أرضا مواتا:«ورأى ذلك علي في أرض الخراب بالكوفة وقال عمر من أحيا أرضا ميتة فهي له ويُروى عن عمر وابن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غير حق مسلم»84 وقد أخرج البخاري حديثا آخر في نفس الباب عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق» قال عروة «قضى به عمر رضي الله عنه في خلافته»85 والذي يبدو من خلال أحكام إحياء الموات أن مقصد الشرع ينصب على تحقيق الاستثمار حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سن في زمن خلافته سنة قضت بأن تسلب ملكية الأرض لمن حازها ولم يحييها فقد ثبت عنه أنه قال « من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنوات»86 وقد تلقى الفقهاء هذا الاجتهاد العمري بالقبول وقننوا له من الأحكام ما فرق بين الإحياء والاحتجاز, فالاحتجاز عندهم هو تملك أرض بإذن من جهة شرعية وتركها من دون إعمار ولا غرس. وبناء على تعريفهم هذا يكون الاحتجاز تعطيلا ينافي مقصد الإحياء.

.) فضل الزراعة والحث عليها:

بعد أن بين القرآن والسنة أن الرزق إمكان قد يبلغ حد الوفرة أو الرغد بالتسمية القرآنية وبعد أن أطر خصوصيات الجدل الذي ينبغي أن يقوم بين الإنسان والأرض وبعد أن ربط بين فرائض الإسلام وعقائده ومعاملاته وأخلاقه وبيّن حيثية الإنفاق بعد فعل كل ذلك فسح المجال لمشهد حافل تبدو فيه الأرض مكتنزة بأنواع من النباتات والمغروسات والأنعام الواعدة بالوفرة والتي تكفي وتفي بحاجات الإنسان ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا أحياءً وأموتا وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتا﴾87.

إن الأرض في القرآن تمور مورا بنباتات وأشجار ذات عطاء زاخر ومتنوع فمن النباتات ما يتلبس بالأرض يغطي أديمها لا يكاد يتجاوزه ومنها ما يستغلظ ويستوي على سوقه وفي الصنفين غذاء للإنسان والأنعام ومن الأشجار ما يعلو باسقا له طلع نضيد وثمار متنوعة.بحيث تنبئك المشاهد الغذائية القرآنية أن مقدرات الأرض الغذائية واعدة ﴿حبا ونباتا

---

[84] صحيح البخاري, كتاب الحرث والمزارعة, باب من أحيا أرضا مواتا, ص421.

[85] م ن, حديث رقم 2335.

[86] أبو يوسف, الخراج, ص 65, وانظر, عماد الدين خليل, مقال في العدل الاجتماعي, ط3, مؤسسة الرسالة, بيروت, 1982، ص73.

[87] 25-26-27, المرسلات, 77. (88) 99, الأنعام.

وجنات ألفافا﴾قال تعالى﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضِرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾88.

هكذا ينمي القرآن في الإنسان الرغبة في حب هذه الطبيعة ويؤهله لأن يحاكي ما تفعله فيغرس هو أيضا ويتشبه قدر استطاعته بفعل الله وبناء على هذا حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الزراعة والغراسة جاء في صحيح البخاري من كتاب الحرث والمزارعة باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه من طريق أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»89 وقد زاد الإمام مسلم في روايته «إلى يوم القيامة»90 وفي هذا الضرب من الأحاديث ما يشجع على العمل الزراعي,لا سيما وهذه الأحاديث تربط بين المعاش والمعاد,وقد ذكرت الأحاديث الصحيحة كل ما يتعلق بالتشجيع على العمل الفلاحي فلفتت الأنظار إلى ما يختص بالحرث ووسائله91 وبما يتصل بعقد المزارعة92 وبأحكام كراء الأرض93 والحقيقة أن النصوص الحاثة على الزراعة كثيرة ومن رغب في الاستزادة فليعد إلى كتب الحديث.

وإن ما يلفت الانتباه أن القرآن يبشر بعطاء العمل الفلاحي في آية السنبلة بأكثر مما نأمل ونقدر فما يفعله المال والجهد تفعله الأرض وبأكثر سخاء فالحبة الواحدة تستطيع أن تعطي سبعمائة حبة أي أن القنطار قد يعطي سبعمائة قنطار, ولئن كانت آية السنبلة مثلا ضربه الله لسعة فضله في الأجر فإن الأمر فيها من جهة الحيثية الطبيعية إمكان قابل للتحقق في أرض الواقع وهو إمكان يقول للإنسان إنك تستطيع أن تعرف جنس الصنف الغذائي وكيف يُثمر ولكنك لا تستطيع أن تقدر كم يثمر إنك لا تستطيع أن تقدر مدى الثروة,فالمدى يتسع وقد يتسع بصفة مذهلة.وهذا ليس من باب الوهم.إنه حقيقة ذلك أن المدى مركوز في صلب البذرة ولا

---

88 99، الأنعام، 6.

89 البخاري, صحيح البخاري, كتاب الحرث والمزارعة باب فضل الزرع والغرس, حديث رقم 2320, ص418.

90

91 صحيح البخاري, حديث رقم 2324.

92 انظر, م ن, باب المزارعة بالشطر ونحوه ص 419.باب ما يكره من الشروط في المزارعة, ص420, باب المزارعة مع اليهود, ص420.

93 م ن, باب كراء الأرض بالذهب والفضة,ص422.

يترقب إلا أن تتحقق شروط النجاح فإذا تحققت انزاح المقدر ليتضاعف أضعافا ﴿في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾94.

إن هبة المضاعفة التي هي فضل بيد الله يجازي به عباده الصالحين تصبح إذا اتصلت بعالم الحبوب والبذور والغرس قانون عطاء يمكن أن نسميه قانون المضاعفة أو سنة المضاعفة.

وقوام هذه السنة أن تتكثر بكيفية واعدة إنه أمل ممكن يضعه الله بين يدي الإنسان وما على الإنسان إلا أن يفعل دوره الأخلاقي لأن الدور الأخلاقي وبحسب منظور القرآن يتصل بصميم مسألة الغذاء إن الأخلاق هي رهان التحدي﴿و أنْ لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾95 فكيف يحمي الإنسان بأخلاقه هذا التفاؤل وكيف يجعل الغذاء رزقا طيبا وإمكانا رغدا؟ هذا هو السؤال.

)الأمن الغذائي ومعنوية الأخلاق:

إن الأمن الغذائي يحتاج إلى معنوية روحية ترشد سلوك الإنسان وتعود به إلى معاني الأمانة والتكريم فالإنسان يبقى خير البرية أي أنه الفاعل الذي به يقوى الخير ويتجلّى وينزاح إلا أنه إذا تولى عن الخيرية وأهمل التكريم يوشك أن يرتد المؤشر من حيز الخيرية إلى حيز الشر والهلكة ﴿فإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾96 فالضابط الأم أن يحافظ الإنسان على قيمته ككائن حر يملك زمام نفسه من أن ترتد إلى الهوى أو تجنح إلى التحكم في مقدرات الأرض فيمنع منها غيره استبدادا واستعلاءً وقد نبه القرآن إلى أن هذا التوجه فيه مكر وأعلن أن من حق الإنسان أن يربح ويعوّض عن متاعبه وهذا دليل نجاح ولكن ليس من حقه أن يحاصر أو يهلك منافذ الإنتاج بغية بسط النفوذ وتحقيق الغلبة وإملاء الشروط.وقبل أن يواجه القرآن هذا المكر دعا الإنسانية أن تعود دائما إلى ما يقتضيه معطى التكريم وأخلاق التعاون.وأن تتذكر أن الله الذي أحسن لها العطاء قد أهلها لأن تحسن العمل ﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾97 إن السنة الحميدة في التعامل مع

---

[94] 261, البقرة, 2.

[95] 16, الجن, 72.

[96] 205, البقرة, 2.

[97] القصص 28.

خيرات الأرض تقتضي أن يحسن الإنسان التصرف وأن ينظر إلى الأرض بحب أليست مظاهرها تجليات لصفات الله,أليست هي مائدة البشرية جميعا أما إذا أضحت هذه الضوابط حبرا على ورق وحولتها أخلاق السوق إلى مسوح نفاق حيث «تصف ألسنتهم الكذب بأن لهم الحسنى» فحينها لابد أخلاقيا أن يتحول التعامل إلى ما يقتضيه قانون التدافع حيث يتوجب على المستضعفين في الأرزاق أن يتجمعوا ليقتحموا العقبة حتى يفكوا عن رقابهم المسغبة ﴿فلا اقتحم العقبة وما أدراك مالعقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة﴾98 وإذا تم النجاح يواصل التوجيه القرآني دعوة الإنسان إلى مزيد شكر النعمة. وكلما زاد الشكر زادت النعم. ولكن لم يغفل القرآن إمكانية أن ينفلت الإنسان وتصول أنانيّته فوضع لمزيد التفعيل ضوابط تمنع الاحتكار وترشّد الاستهلاك ثم رفدها بما يعضد تواصل النماء فإذا بالزكاة في الحبوب والثمار والأنعام والمال آلية اجتماعية واقتصادية تحمي نجاعة المعاش.

الخاتمة:

ومن معنوية القرآن والسنة أنهما يتحدثان عن مسألتي الرزق والغذاء ضمن منظور إنساني، ونقصد بذلك أنه يخاطب الإنسان أينما كان في الزمان والمكان ويفتح له مجال الجدل مع الطبيعة لتحقيق إكتفائه الغذائي، ويرفده بمدد من القوة المعنوية بحيث يتنبه الإنسان إلى

---

[98] 11-16, البلد.

حقيقة تقول: إن الأرض واعدة بالعطاء الغذائي إلى حدّ الوفرة، وبناءً عليه يبقى الأمل موصولاً بهذا الجدل فلا يتعطل الجدل ولا سبيل إلى التشاؤم.

إن الإشكال الراهن لهذه المعضلة وما فيه من اختلالات وخطورة ليس مرتبطا بمقدرات الأرض إنما هو مرتبط بدوائر تكيف استعمال الأرض وتوزيع مقدراتها الغذائية وفق مقاصدها ومصالحها بحيث يتأذى العدل الاجتماعي ويضطرب ويغيب الاتفاق على ما هو للدولة وما هو حقوق للناس(الشعوب) بحيث يقلص جشع السوق حق الإنسان في الغذاء.

والذي نراه أنه لا مناص من مد جسور التنسيق بين الأمم في هذه المسألة.